

هناك، حيث تُحرق الكتب يؤول الأمر إلى حرق البشر

حرق الكتب ومصادرتها جريمة ظهرت قبل الطباعة وتواصلت بعدها



حرق الكتب.. اعتراض ثقافي أم ديني أم سياسي

الإنترنت، حيث يمكن لشخص واحد الحصول على الكتاب ممنوع وتعميمه. والخطر أن تتحول المصادرة إلى حرق، خصوصا في البلدان التي تغلغل فيها الفكر المتزمت، لأن دعائه لا يقنعون بالكتاب بل يتجاوزونه إلى صاحبه، كما حصل مع الراحل نجيب محفوظ. يقول الألماني هاينريش هاينه "هناك، حيث تحرق الكتب، يؤول الأمر إلى حرق البشر".

بعض كتب التراث أحيانا إلى البتر والتشويه والحرق، بدعوى احتوائها على مشاهد فاضحة أو أشعار خليعة أو نقد للفكر الديني المتزمت، رغم أنها لم تقابل بالرخص في حينها، وكان الأسلاف أكثر تفكحا وتسامحا من الأخطاف. المفارقة أن المصادرة تساهم في تسليط الضوء على كتب منسية، وترغب الناس في الحصول عليها. والمفارقة أيضا أن تتواصل المصادرة في عصر

لباولو كويلهو في إيران، و"الظلام" لجون ماكغاهين في أيرلندا. القائمة طويلة حتى أن جمعية المكتبات الأميركية صارت تنظم كل عام أسبوعا لنشر قائمة الكتب المحظورة عبر العالم والاحتفاء بها كنوع من التنديد بالمنع والمصادرة. أي أن المصادرة تشمل أيضا البلدان التي ترفع شعار حرية التعبير، وإن كانت أقل حدة مما يجري في البلدان النامية، حيث تخضع

وبيت الحكمة التي دمرها المغول في منتصف القرن الثالث عشر إلى جانب عدد آخر من المكتبات، والقوا بجميع محتوياتها في نهر دجلة. أما في الغرب الإسلامي فقد جذت في الأندلس سلسلة من الحرائق استهلها عبدالرحمن الناصر بإحراق كتب ابن مسرة، ثم تواصلت بإحراق كتب الإمام ابن حزم في عهد المعتضد بن عبّاد، وكتب الغزالي في عهد أمير دولة المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين، وكتب ابن رشد في عهد المنصور الموخدي، قبل أن تأخذ عنهم محاكم التفتيش "المشعل" بشكل تلقوسي كما أسلفنا.

مفارقة المصادرة

لا تزال عمليات إعدام الكتب أو مصادرتها متواصلة في فضاءنا العربي حيث تم في أواسط الثمانينات إحراق نسخ من "الف ليلة وليلة" في القاهرة، أو القضاء الإسلامي حيث دمر الصرب مكتبة ساراييفو خلال حرب البلقان الأخيرة، وأقدمت حركة طالبان على إتلاف عشرات الآلاف من الكتب النادرة في أفغانستان، إضافة إلى تدمير فرع القاعدة في شمال أفريقيا لجانب هام من مخطوطات مكتبة، وتدمير جماعة بوكو حرام لكل الكتب التي تصادفها في نيجيريا وسواها، وإحراق داعش لعدد من المكتبات الخاصة والعامة في الموصل وغيرها من المدن العراقية. والدافع إلى حرق الكتب كما قلنا أيديولوجي أو سياسي أو ديني، وإن اصطلح أحيانا بصيغة طائفية ومذهبية في الدين الواحد، حيث يفتح الحاكم الجديد الباب لمصادرة الكتب التي لا توافق مذهبه، كما حصل في الأندلس مع ملوك الطوائف، وهي الأسباب نفسها التي تتدرج بها السلطان السياسية والدينية لمصادرة الكتب، كان تبرز المصادرة باحتواء الكتاب على مشاهد ومضامين تمس بالأخلاق الحميدة، أو تحض على الكفر، أو تسيء إلى سلطة سياسية أو دينية، أو تتعرض بغير وجه حق للحياة الخاصة لهذا الشخص أو ذلك. ولئن كانت بعض البلدان تستند إلى القضاء للبت في وجه الخلاف التي يثيرها كتاب ما، فتحذف منه الفقرات المثيمة، أو تجبر الناشر على وضع تنبيه على الغلاف، ولا تتعرض على نشره إلا في حالات خاصة حذرها القانون، فإن بلدانا أخرى تمنع تداول بعض الكتب منعا باتا، مثل "الكتاب المقدس" في جزر المالديف، و"القران" في كوريا الشمالية، و"كفاحي" لهتلر في النمسا، و"لوليتا" لنابوكوف في الأرجنتين، و"الكيميائي"

قوبلت الكتب منذ ظهورها بالريبة، لاسيما من طرف السلطين السياسية والدينية، فكانت عرضة للمصادرة، أو التصنيف في قائمة المنشورات التي ينبغي وقاية الناس منها، أو إحراقها تماما، أو تصحيح ما جاء فيها في أحسن الأحوال، فقد وجدت على مر العصور إرادة قوية لمراقبة النص المدون والتصدي للأفكار الخارجة عن الأنماط السائدة، وما زالت هذه الظاهرة تتجدد من حين إلى آخر وإن بأشكال أخرى، حتى في البلدان المتقدمة.

الدين، أتلقت خلالها الكتب واللوحات الفنية والجواهر والحلل. ولم تسلم الثورة الفرنسية من تدمير الكتب، برغم شعاراتها المرفوعة عن حق الإنسان في التعبير عن نفسه بالوسيلة التي يراها، إذ رافق إحراق كتب النظام القديم تدمير الرموز الثقافية والسياسية السابقة، وخاصة رموز المنظومة الإقطاعية كالنبلاء ورجال الدين، فضلا عن المكتبات.

وعادة ما تكون عملية حرق الكتب تعبيرا عن اعتراض ثقافي أو ديني أو سياسي على الكتب نفسها أو على أصحابها، واعتبارهم منشقين أو هراطقة أو خطرا يهدد النظام القائم.

وليس الكتاب كاداة مادية هو المستهدف في العادة، بل كحامل لمضمون مزعج، أو رمز لثقافة معينة، وقد يلاحق الكتاب لأنهم يخالفون ثقافة السلطة كحال السوفييت مع الأدباء الذين انتقدوا الواقعية الاشتراكية.

ولكن قد يكون بسبب انتماء ديني أو أيديولوجي، وهو ما أقدم عليه النازيون حين صادروا كتب مجموعة من الكتاب والمفكرين والفنانين كونهم شيوعيين أو يهودا أو دعاة سلام أو من أنصار الحركة النسوية، أو لمجرد أن لهم رؤية فنية لا تروق لهتلر وأتباعه أمثال برتولد بريخت والفريد دولبلين وزيموند فريد وفريدريش فيلهلم فورستر وكورت توشولسكي وفرائز فيرقل وأرنولد زفاغ وستيفان زفاغ الذين اعتبروا جميعا من ممارسي "الفن المنحرف" حسب التعبير الذي ابتدعه النازيون.

تلقت المصادرة العنيفة ترامت أصدائها في إسبانيا، حيث قامت الكتلان الفرثية بعملية حرق مماثلة في جامعة مدريد في نهاية أربعينات القرن الماضي، وأتلقت كتب ماكسيم غوركي وسابينو أرانا وفرويد وماركس وحتى لامارتين وروسو وفولتير، وفي شيلي أيضا حيث عمد نظام بينوشي إلى إتلاف كتب نيروا وماركيز وسواهما.

وليس العرب والمسلمون قديما وحديشا بمنأى عن هذه الظاهرة، ولعل أهم المكتبات التي استهدفت في الشرق الأوسط المكتبة السورية التي أحرقها الصليبيون في القرن العاشر الميلادي،



أبوبكر العبادي
كاتب تونسي

حظيت الكتب على مر الأزمنة بالاحتفاء والتعجيل كاية من آيات الفكر والعرفة، ولكنها شهدت أيضا أوقاتا عصيبة. ولئن احتفظت الأكرة بعمليات إحراق الكتب في ألمانيا تحت حكم النازيين، فإن التاريخ يشهد بأن العنف المسلط على الكتب والكتاب ليس بالأمر الجديد، بل رافق الكتاب حتى قبل ظهور الطباعة.

اعتراض سياسي أو ديني

مما دونه فريديغبر ملك القوط الغربيين أن روكاردير الأول، أول ملوك إسبانيا الكاثوليكية في نهاية القرن السادس، أمر بحرق كل الكتب والمخطوطات الأرية في مملكته.

وفي إسبانيا، تحت سلطة محاكم التفتيش، كان يقام حفل يبدأ بموكب من أعضاء الكنيسة والتائبين، يليه قدام في الساحة العامة، ثم تجري محاكمة تشمل الجهر بالتوبة وإعلان الطاعة للسلطة التفتيشية قبل إصدار الأحكام بإحراق الكتب ومعاقبة أصحابها، وقد مارسوها بخاصة على الكتب والمخطوطات العربية بعد سقوط غرناطة، ثم نقلوا الأساليب نفسها في تعاملهم مع مخطوطات الأزتيك والمايا، بعد غزو شعوب أميركا الجنوبية.

المفارقة أن المصادرة تساهم في تسليط الضوء على كتب منسية، وترغب الناس في الحصول عليها بأي وسيلة

كذلك شأن الممالك الإيطالية في فجر النهضة، حيث أقام الراهب جيروم سافونارول في فلورنسا أواخر القرن الخامس عشر "محرقة الأشياء المبتذلة" أي التي تعكس تمسك الأفراد بمتاع

نوادي القراءة تبث روحا جديدة في الأدب الكردي

ويؤكد مؤسسها الشاعر والمترجم الآن باري أنه "من الصعب والمكلف جدا ترجمة وتصدير الأدب الكردي لكن هذا حلم أعمل على تحقيقه".

غالبية الأدب الكردي الذي ينشر حاليا مكتوب بالسوراني والكرمانجي، وهما اللهجتان الكرديتان الرئيسيتان في العراق

وبين الروائين اللتين يسعي إلى إلقاء الضوء عليهما، أول رواية خيال علمي مكتوبة قط بالكردي لغوران صباح. وتتطرق الرواية المعنونة "زاهقو الأرواح" إلى قضية تتشكل خطأ أحرر كبيرا في العراق رغم انتشارها وهي الانتحار. وتدور أحداثها في العام 2100 حينما تهب شابة كردية لتلعب دور المنقذ بعدما أخفقت الأديان والتكنولوجيا والعلم في وقف موجة انتحار. وسيغير الحل الذي يتكره هذه البطلة الخارقة الشابة إقبالا، بحسب كاتب الرواية الذي تمنع عن كشف تفاصيل حفاظا على عنصر التشويق. وستطبع نسخ جديدة من هذه الرواية بعد نفاذ النسخ الـ 500 التي طبعت في أواخر فبراير.

لكنه أثبت في العقود الأخيرة جدارته من خلال العديد من التجارب السردية والشعرية مثل عبدالله غوران وشيركو بيكس وغيرهما. والتجا العديد من الأكراد للكتابة بالعربية، لكن عاد الكثير منهم إلى لغته الأصلية مع تحسن الترجمة من الكردية وانفتاح القراء العرب وغيرهم على آداب الأكراد، الذي ستمثل نوادي القراءة الجديدة منطلقا آخر له نحو انتشار أوسع.

وغالبية الأدب الكردي الذي ينشر حاليا مكتوب بالسوراني والكرمانجي، وهما اللهجتان الكرديتان الرئيسيتان في العراق، ولا يترجم أبعد من حدود كردستان العراق. وتنقل بعض الكتب إلى العربية والفارسية والتركية لجمهور الأكراد في الدول المجاورة الذين غالبا لا يتحدثون اللهجة نفسها. ويرى صباح أن "لا إرادة سياسية" لتعزيم الأدب الكردي، "فالعديد من الدول تركز ميزانية لنشر أدبها في الخارج لكن هنا لا يفعل ذلك". مع ذلك تسعى دار "نووسيار" للنشر التي أسست قبل عامين في كوبنهاغن، إلى قلب الآية وإلقاء الضوء على الأدب الكردي ونشره. وتنشر الدار كل عام ثلاثة كتب لكتاب شباب، وتعمل حاليا على ترجمة مقتطفات من الشعر الكردي المعاصر إلى اللغة الدنماركية، فضلا عن روايتين إلى الدنماركية والإنجليزية والفارسية.

بسهولة أو بالهجرة، متابعاً "يمكن لهم بذلك مثلا أن يزوروا باريس، بالخيال". وفي الأصل فإن اللغة الكردية المتشعبة التي التقطت خلال عمرها المضطرب تبعا للنحولات الآلاف من المفردات العربية والفارسية والإنجليزية والتركية، تعد لغة "هندو - أوروبية"، وبها لهجتان أساسيتان هما "الكرمانجية" و"البهلوانية"، اللتان تنقسمان إلى 18 لهجة محلية، وربما ساهم هذا في عدم رواج الأدب الكردي بالشكل الذي يستحق،

ويضيف "البعض يهرب من الواقع عبر مشاهدة كرة القدم، وآخرون يفضلون الكتابة والقراءة". أما بالنسبة إلى زميله في نادي القراءة أستاذ اللغة الكردية بختيار فاروق فإن "الشباب الأكراد يكتبون تعبيرا عن غضبهم والأهم، لكن أيضا هربا من الواقع". ويضيف أن "العراقيين يقرأون ليسافروا"، فجزوات سفرهم لا تسمح لهم بزيارة الكثير من الدول الأخرى

المثلى لتبادل الأفكار وخلق شعور بالانتماء لدى الشباب" في منطقة تهيم فيها عائلتان على الحياة السياسية والاقتصاد لا تفتحان المجال أمام جيل جديد ذي أفكار حديثة. ويعتبر صباح في حديث له أن تلك النوادي عبارة عن "مدارس للتفكير: هي تخلق أجيالا ذات ثقة بالنفس وتغير المجتمع من القاعدة" رغم الفقر والبطالة المترديين والتقاليد المحافظة التي تكبلهم.

أربيل (العراق) - تنتظر هدى كاظم البالغة من العمر 17 عاما بفارغ الصبر التعليقات على روايتها الأولى أمام أعضاء نادي للقراءة بربيل في كردستان العراق يوفر فسحة للكتاب الشباب لبت الروح في الأدب الكردي الذي بقي شفوياً لقرون.

تقول هدى بعدما تلقت ردود فعل قراء شباب وكتاب وأساتذة في الأدب حول روايتها الأولى "لقد تعلمت كثيرا عن الكتابة، وهذا يشجعني على المواصلة". وبعدما قدمت قصة قصيرة للأطفال كاول عمل لها، تروي هدى في روايتها الأولى "باراني سارغ" أو "مطر من الأموات"، قصة كردية انتمى إلى جماعة مسلحة عندما كان في سن الخامسة عشرة، هربا من خلافات عائلية ولتناسي انفصاله عن جيبته. وتنسبه هذه الرواية قصصاً حقيقية مماثلة عدة في الإقليم ذي الحكم الذاتي في شمال العراق، والذي يعيش نزاعات منذ 40 عاما.

وأصبحت نوادي الكتب الثمانية في الإقليم، التي تضع على عاتقها تقديم الكتاب الجيد، مساحة لمناقشة المواضيع الاجتماعية تلك فضلا عن روايات الخيال العلمي التي بدأت تزدهر أيضا. وكان الروائي غوران صباح أول من فتح الطريق أمام هذا الاتجاه بإنشائه ناديه في بناير في مهني بربيل. ويرى صباح حامل الدكتوراة في الأدب من جامعة كانساس في الولايات المتحدة، أن النوادي تشكل "الطريق



القرأ ينعشون الأدب الكردي